الشتائم باعلى صوتهما . ويكررون : « عرب قذرون . عرب قذرون » . وطوال هذا الوقت اشعر باللامبالاة . اذ انني رأيت هذا ، واكثر منه بكثير ، يفتعل في القرية . كانوا يمسكون الناس من شعورهم ويجرونهم الى وسط الساحة ويركلونهم الى ان يغيبوا عن الوعي . وكثيرا ما كانوا يأخذون معهم اشخاصا يشتبهون فيهم ولا يعودون ابدا . في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، قبل ان اولد ، شنق البريطانيون ثلاثة رجال من قريتنا ، ثلاثة مجاهدين .

مع ان ابي لم يكن مجاهدا قط ، فقد نقل الي نفسيتهم . ان ميثولوجيا المجاهدين هي جزء لا يتجزأ من تاريخنا الشفهي . فكل طفل فلسطيني يجلس على ركبتي والديه يصغي ، مذهولا ، الى حكايات الرجال الذين تحدوا البريطانيين الممقوتين وفيما بعد الصهاينة . كيف ان جماعات من المجاهدين كانت تأتي الى القرية خلال الثورة ، ببنادقها وكوفياتها المرقطة فتخرج النسوة الى الساحة ويقدمن لها الازهار واكياس الأغذية ويشير الاولاد اليها . وفجأة تقف امرأة على مسافة قريبة ، وتضع يدها فوق فمها ، ممسكة شفتيها بأصبعيها وتبدأ بالزغردة . وتنضم اليها النساء الاخريات وتتصادى الساحة ، والقرية كلها ، بالاصوات الصداحة . ويصير الرجال في القرية توقيريين ، ويخفتون اصواتهم ، فيما يحيون المجاهدين . « اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا بالابطال » . وقبل ان يغادروا ، ينضم الى المقاتلين بعض الشبان من القرية الذين يتركون الحقول ليعيشوا في الجبال مع المجاهدين .

لم يذهب ابي ابدا . كان صاحب حانوت صغير . وذات يوم يترجل ثلاثة جنود بريطانيين من سيارتهم الجيب خارج حانوته ويتحدثون اليه . انهم سكارى . ويروح احدهم ويشتم ابي لأن هناك ذبابا على السلع المعروضة بصورة مكشوفة . واراد ان يعرف كيف تتوقع من اي شخص ان يأكل هذا البراز والذباب عليه . ويأخذ الجندي الآخر بندقيته ويطيح بأكياس الزيتون والجبنة والبرتقال ، واي شيء قريب منه ، على الارض،ويقفز عليها ، ويضج بالضحك . ويمسك الجندي الثالث ابي من عنقه ، ويرمي بحطته من على رأسه ويضربه على صدره . وصار اخي مجاهدا في سن السابعة عشرة .

عندما غادرنا فلسطين ، في النهاية ، كان الفجر ينفخ حولنا مثل غضب الله . كانت مدينتنا قد سقطت واحترقت على جثث رقدت مستلقية على ظهرها . وصفق العالم استحسانا . ولكنني لا اكره . لم استطع ان اكره في سن الثامنة . كان نيسان (ابريل) دائمًا وقتا طيبا من السنة حيث ولدت . فالشمس تشرق ورائحة الزيتون والبرتقال تعبق في الهواء . وهذا النيسان ، في ١٩٤٨ ، كان آخر نيسان لوالدي في فلسطين .

اليوم السابق لمغادرتنا المدينة ، نجلس في المنزل قرب الطريق الدولية ونسمع اصواتا اجنبية تصرخ في مكبرات الصوت . **اخرجوا نساءكم واطفالكم** . وكرهت تلك الاصوات الاجنبية . **اخرجوا الجميع . اخرجوا كل شيء** . ستكون هذه بلاد قوم آخرين الآن . **اخرجوهم** . وحول الشوارع ، في البعد ، ثمة اصوات نيران اسلحة متقطعة . **اخرجوا نساءكم واطفالكم** . وهناك شعل ودخان والعاب نارية تنفجر في السماء ، فوق المنازل ، وراء المرفأ ، قرب جبل الكرمل ، وقرب وسط البلدة . كان شيء ما يحتضر . كان شيء ما ينتهي بالنسبة لهذا الجيل من الفلسطينيين . **اخرجوا** . كانت نقطة التحول .